# الدور التاريخي والحضاري

## لصلاح الدين الأيوبي

د. شحادة علي الناطور

هل يستطيع أحد أن ينكر دور صلاح الدين الأيوبي التاريخي والحضاري الذي تمثل في تحرير الأرض العربية من الغزاة، بعد أن أصاب الأمة العربية الاسلامية الاختلال، وخرجت عن تقاليدها المجسّدة في ترك الجهاد. ودوره هذا على جانب كبير من الأهمية، لما بذله من جهد في اعداد الجماهير العربية حتى أصبحت قادرة على التصدّي والمواجهة ثم تحقيق النصر.

ولكن، هل كان دوره عفويا خارجا عن المألوف ؟ أم هو نتيجة الانسجام والتفاعل مع المجتمع العربي أنئذ، لارتباط غايات المجتمع وأهدافه مع غاياته وأهدافه، باعتباره عضوا فاعلا وموجّها لمجتمعه قادرا على تحقيق ذلك من خلال ذاته وطموحه وتصوراته نتيجة فهمه العميق لحاجة الجماهير التي حفر فيها الحزن وأزمن اليأس، فكان لزاما عليه أن يخلصه من هذه المأساة، وهو بالتالي لا يستطيع التهرب من هذا الدور الانساني والحضاري للأمة.

ومهما يمكن أن يقال فهل كان المجتمع العربي نتيجة ما وصل إليه من التردي القائم على التنافس، والتناقض والتشرذم بحاجة إلى مخلّص يلبي رغبة أعماق وجدان الجماهير العربية في الوحدة وبخاصة أن صلاح الدين كان يرى في الأمة القدرة على السيطرة مجرى التغيرات التاريخية بتوجيهات نحو الأهداف القومية لتكون على مستوى الأحداث.

والسؤال المطروح : هل كانت قيادة صلاح الدين للأمة نتيجة التحدي والغزو لبلاد العرب ؟ أم أنها استمرار حتمي لمن سبقوه، وما حصل ما كان ليكون بدونه ؟.

ولعل أول من حاول التصدي لغزو الفرنجة عماد الدين زنكي الذي ينتسب إلى آق سنقر الذي تربى مع ملكشاه السلجوقي، ونال محبته فكان يفضي إليه بأسراره ويوكل له المهمات

الخاصة والصعبة فجعله من أمرائه ولقبه قسيم الدولة[1] لما بذله من جهد وقدرة عسكرية فأوكل له السلطان حلب وأعمالها (منبج، وكفر طاب، اللاذقية عام 480 هـ / 1057 م)[2].

واستطاع (آق سنقر) من بسط العدل وانصاف الرعية، فعمّ الأمن، مما جعل الركبان يتحدثون عن سيرته[3]. إلّا أن هذا قتل بعد وفاة الملكشاه في صدام مع شقيق السلطان (تتش عام 487 هـ / 1064 م) بسبب الخلاف بين شقيق السلطان وابنه بركيا روق[4] الذي انتصر على عمّه ووفاء من السلطان الجديد لأبيه أخذ يعتني بابن القتيل (عماد الدين) فأوصى مماليكه بتدريبه فنون القتال ثم أقطعه الاقطاعات السنية حتى وفاته عام 494 هـ / 1100 م.

وتبدو أول امارات الفروسية والقدرة القتالية لعماد الدين زنكي في معركة طبريا التي **خاضها مع السلطان الجديد مودود في 10 محرّم 507 هـ / 1112 م وألحقت بالصليبيين** وملكهم بلدوين هزيمة نكراء، وبعد قتال استمر ستة وعشرون يوما، وتميز فيها بالشجاعة والمهارة وكفاءة التقال بحيث أعجب به زملاؤه، فأخذوا يتحدثون عن شجاعته واقدامه[5].

واستغل عماد الدين زنكي منصبه الذي عهد إليه بتولي ولاية البصرة وديار بكر والجزيرة ونصيبين عام 521 هـ / 1127 م[6] فقام باصلاحات عدّة، فعمّر البلاد ونشر الأمن والسلام، ثم أخذ يهتم بالشؤون العسكرية، فأصبحت امارته قاعدة للتدريب العسكري استعدادا للزحف نحو الفرنج، الذين يهددون ديار الاسلام.

---

(1) ابن الأثير : علي أبي الكرم، محمد بن عبد الكريم الشيباني (630 هـ / 1233 م).
الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، القاهرة، 1963، ص 4.
ابن تغردي بردى الأتابكي : أبو المحاسن، جمال الدين (874 هـ / 1476 م).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : القاهرة، سنة 1964، ص 271/5.
أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل (ت 665 هـ / 1267 م).
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، سنة 1956، ج 1 / 61.

(2) ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت 652 هـ / 1297 م).
مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، سنة 1957، ص 19.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 61.

(3) ابن القلانسي، أبو يعلى، حمزة (ت 555 هـ / 1160 م).
ذيل تاريخ دمشق، بيروت، عام 1908، ص 119-120.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، ص 11.

(4) ابن الأثير : الباهر، ص 15.

(5) Stevenson : The Crusades in the East, p. 121, 122

(6) ابن الأثير : الباهر، ص 28، 29.
الكامل في التاريخ، ج 10، ص 641.

أحسّ عماد الدين بثقل المسؤولية التاريخية نحو أمته، فوضع خطة استراتيجية للقضاء على الوجود الصليبي، وتقتضي خطته باعادة الوحدة للأمة، فهي (الوحدة) التي توفّر القدرة للانتقال من مرحلة التصدي إلى التحرير.

ولكن إعادة الوحدة بين امارات متناثرة، تحتاج إلى جهد جبّار من الاعداد لهذا الأمر، وبعد أن أكمل استعداده لهذا الأمر، بدأ بالخطوات العملية، فضمّ عددا من الولايات بدأها بجزيرة ابن عمر(7)، ثم نصيبين فسنجار، والخابور وحران(8)، وما أسرع أن ضمّ حلب بناء على رغبة أهلها ولعجز الملك رضوان عن صد مهاجمة الصليبيين، فاستقبل بالفرح(9)، ثم ضم حماه وحمص، وبناء على هذه الانجازات توطدت علاقته مع الخليفة العباسي المسترشد (528 هـ / 1133 م)، وحانت الفرصة لعماد الدين من اختبار امكانياته المادية والعسكرية عندما هاجم امبراطور بيزنطة (يوحنا الثاني) وسانده الفرنج فهاجموا حصن شيرز (واستعان حاكم الحصن) (أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ) فأوقع بالغزاة هزيمة منكرة) وغنم منهم آلات الحصار بجانب أسر عدد كثير منهم، وتابع نصره فحرر حصن (عرقه) القريب من طرابلس.

خشي حاكم دمشق (معين الدين أنر) على حكمه من عماد الدين، فقام بالتحالف مع الصليبيين (ريموذد) وعقد معه معاهدة يدفع معين الدين له عشرين ألف قطعة ذهبية كل شهر بجانب الرهائن(10).

التقى عماد الدين مع معين الدين وريموند صبيحة السبت من ذي القعدة عام 534 هـ / 1138 م بضواحي دمشق، فأنزل بهم هزيمة كبيرة، غنم على اثرها الكثير من الخيول والأنعام، واكتفى بذلك وعاد إلى الشمال(11).

ويرى باركر أن استعدادات عماد الدين، لو ضمّت إلى قدرات حاكم دمشق لكان بامكانهما القضاء على مملكة بيت المقدس، لأهمية دمشق من حيث الموقع الحربي والاقتصادي(12).

واذا كان عماد الدين قد ضم شمال سوريا (حلب، حماه، حمص) إلّا أن ما يقلق راحته استمرار وجود جيب ما بين الموصل وحلب ألا وهي امارة الرها، التي استولى عليها بلدوين في

(7) ابن واصل : مفرّج الكروب، ص 34، 35.
(8) ابن واصل : المصدر نفسه، ص 36.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ص 73.
(9) ابن الأثير : الباهر، ص 28.
Kenneth : Historl of Crusades, p. 159.
(10) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 271.
(11) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص 272، 273.
(12) Stevenson : Ibid, p. 459.

الحملة الصليبية الأولى، فاستغل النزاع بين امبراطور بيزنطة (مانويل) وحاكم انطاكية (ريموند) فاستردها عام 539 هـ / 1144 م، وبسط العدالة بين السكان بعد أن طيب نفوس أهلها، الأمر الذي جعله يكسب محبّة ومساعدة الأهالي فيها[13].

لقد كان تحرير المسلمين للرها نقطة تحوّل بالنسبة للمسلمين وللصليبيين. فتحرير الرها وحّد شطري الدولة (الموصل + حلب)، ومنحهم الثقة في قدراتهم، فكانت بداية النهاية بالنسبة للغزاة[14] بينما أصاب الفرنج الفزع فاتفق حاكم انطاكية وملك القدس على ارسال جيش موحّد لاعادتها، إلّا أن الجيش العربي ألحق بالجيش الأول الهزيمة ولما وصل الجيش الثاني ناله ما نال سابقه[15] وتتالت انتصارات عماد الدين فضم سروج وانتصر على فرقة صليبية بضواحي بعلبك، كما قضى على فتنة الأرمن بالرها[16]، ثم توجه لتحرير قلعة دوسر (جعبر) وبينما كان يحاصرها اغتاله غلام باطني ملأ الحقد قلبه في السادس من ربيع الأول عام 541 هـ / 1146 م[17] بعد أن أمضى خمسة عشر عاما في مقارعة الغزاة، حيث شكل جهاده سابقة رائدة

---

(13) باركر : الحروب الصليبية، ص 50.
حسين مؤنس : نور الدين زنكي، ص 178، 179.

(13) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص 279، 280.
ابن العديم : جمال الدين أبي القاسم، عمر بن أحمد (ت 660 هـ / 1261 م).
زبدة حلب، بيروت، 1968، ج 1، ص 279.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، ص 95.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ص 94.

(14) حسين مؤنس : نور الدين الزنكي، ص 176.
باركر : الحروب الصليبية، ص 176.

(15) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 280.
Stevenson : Ibid, p. 149.
Campbel : The Crusades, p. 128.

(16) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 280.
Fisher : The Middle East, p. 136.

(17) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص 284، 285.
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة، ج 5، ص 279.
ابن العديم : زبدة حلب، ص 282، 285، 286.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، ص 107، 108.
ابن الأثير : الكامل، ج 11، ص 45.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ص 100.
العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد، (ت 597 هـ / 1200 م.
تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، سنة 1980، ص 189.
ابن الجوزي : أبو الفرج، عبد الرحمن (ت 592 هـ / 1201 م).
مرآة الزمان، ج 8، ص 191.

في التصدي للواقع الذي فرضه الصليبيون، أوقعت في أوصالهم هزّة عنيفة بعد الهزائم المتكررة وبعد أن أزمن اليأس، فكان الأمل لتغيير الواقع الأليم.

ورث نور الدين محمود زنكي والده عماد الدين، كما أخذ عنه خصائص عدّة، وفي مقدمتها حبّه للجماهير وايمانه بضرورة الخلاص من الصليبيين، وكان والده قد أعدّه لذلك، فعني بتربيته الدينية والعسكرية، ووفّر له العلماء والمدربين العسكريين، حتى أصبح فارسا مقاتلا رافق والده في أيامه الأخيرة، وانعكست ثقافته فكانت دمشق في عهده مدينة الثقافة والعدل[18].

واذا كان نور الدين محمود قد أعده والده ليكون قادرا على تحمل مسؤولية التحرير، فقد توفرت مجموعة من الخصائص من قيادة وحسن تخطيط وشجاعة نادرة[19] إلى درجة التهور أحيانا، اذ كان يتقدم المقاتلين مندفعا دون خوف ولا وجل، الأمر الذي أكسبه محبّة وتقدير المقاتلين، اتخذ نور الدين محمود خطة الحرب المتصاعدة نحو الغزاة[20]، وهذه اقتضت منه الاعداد لها، فاهتم بأمر الجند، فوفر لهم السلاح والتدريب والحشد الدائم لحاجاتهم العسكرية، فضلا عن ترميم القلاع والصحون[21].

وتجسّدت خطته عندما هزم المتمردين في الرها بتوجيه من جو سلين الثاني، حيث لاحق الصليبيين وقتل ثلاثة أرباعهم[22] وكذلك في انقاذ دمشق من أطماع الفرنج عام 542 هـ / 1147 م، والقضاء على المؤامرة التي دبرها والي صرخد التونتاس مع بلدوين الثالث، حيث قدم العميل الخائن باعتباره مجرما في حق الأمة، فسملت عيناه[23] ليبقى عبرة لغيره.

ولمّا كان هدف الحملة الصليبية الثانية اغتصاب دمشق، في ربيع الأول عام 543 هـ / 24 تموز 1148 م، فقد تمكن نور الدين من افشال الخطة، بعد أن أوقع فيهم خسائر

---

(18) ابن تغري بدوي : النجوم الزاهرة، ج 6، ص 71.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، ص 15، 28.
ابن الأثير : الكامل، ج 11، ص 164.
صلاح الدين المنجد : دمشق القديمة، ص 17.

(19) ابن العديم : زبدة حلب، ص 218.
Zoe Oldenborg : The Crusades in the East, p. 323.

(20) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 351.
Zoe Oldenborg : Ibid, p. 348.

(21) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 13.

(22) ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1 / 111 : ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 114، 115.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 288.

(23) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 121.

**جسيمة[24]، كما أفشل خطة ريموند (صاحب انطاكية) في صيف 544 هـ / 1149 م في إحتلال حلب بعد أن لقنه درسا لا يُنسى بقتل معظم جنوده[25]، ثم استعادة معظم القلاع الواقعة بين حلب وانطاكية، واستمر في تقدمه نحو أنطاكية بعد أن حرر كل ما حولها من الحصون** والقلاع[26]، وفي طريق عودته استعاد حصن أفاميا الذي كان يهدد حمص وحماة، ثم استولى على تل باسر وعين تاب وعزار وتل خالد وكفرسود ودلوك (نهر الجوز)[27].

ولعل ما كان يشغل تفكير نور الدين هو دمشق، وحانت الفرصة له عندما قامت فيها انتفاضة شعبية اثر تعاون حاكمها (مجير الدين آبق) مع الصليبيين، فتوجه إلى دمشق داعما الثوار، وقضى على العميل، وبذلك أصبحت الممالك الشامية تابعة لنور الدين[28]، فضلا عن الرها والموصل، ولم يبق أمامه سوى بعض القلاع التي لا تشكل خطرا عليه كحصن افليس (قرب المعرة)[29]، حيث حرره عام 548 هـ / 1154 م، وكذلك بعض المدن كبيت المقدس، وبانياس وعكا وعسقلان[30].

وتمثلت قوة الردع عند القوات الاسلامية في 13 ربيع الأول 553 هـ / 1158 م، بسحق **القوة الصليبية والمؤلفة من سبعمائة فارس من أبطال القديس يوحنا الهيكليين، الذين حاولوا تعزيز الحدود المجاورة لدمشق، فأبادهم القائد المظفر أسد الدين شركوه[31]، وكذلك الأمر في 28 من الشهر نفسه عندما تقدم نور الدين نحو بانياس، فاستعادها ثم لاحق الفارين إلى معسكرهم بالقرب من طبريا، وأبادهم بحيث لم يفلت منهم سوى عشرة فرسان، ووقع الباقون منهم بين قتيل وأسير[32] وعرض الأسرى في دمشق، الأمر الذي رفع الروح المعنوية لدى الجماهير الدمشقية.**

وتحقيقا لاستراتيجية نور الدين في تكوين جبهة اسلامية متحدة، لبى نداء الخليفة الفاطمي العاضد ثلاث مرات لانقاذ مصر من السقوط بأيدي الصليبيين (559 / 1163،

---

(24) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، 297، 300.
ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 25. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، 133.

(25) ابن الأثير : المصدر السابق، ص 144. أبو شامة : المصدر السابق، ج 1 / 150.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1 / 120، 121.

(26) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 150، 151.
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 305.

(27) ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1، ص 123.

(28) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1، 5902.

(29) ابن الأثير : الكامل، ج 11، 149، 154.

(30) ابن الأثير : المصدر السابق، ج 11 / 198.
ابن واصل : مفرج، ج 1 / 126، 127.

(31) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، 338، 339. أبو شامة : الروضتين، ج 1 / 305.

(32) ابن شداد : كمال عز الدين، عبد الله بن محمد (ت 632 هـ / 1224 م).
النوادر السلطانية، ص 40.

562 هـ / 1164، 564 هـ / 1169) انتهت بانقاذ البلاد، وتعيين أسد الدين شيركوه (قائد جيش الانقاذ) وزيرا للخليفة لمدة ثلاثة أشهر، حيث توفي، فتولاها من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، في الثامن والعشرين من جمادى الآخر من عام 564 هـ / 1169 م[33].

ولمّا خرجت اليمن عن الاجماع في عهد حاكمها عبد النبي بن مهدي في مستهل رجب عام 569 هـ / 1173 م، قام صلاح الدين بضمها إلى الدولة العربية الاسلامية.

وهكذا تمّت الوحدة للجماهير بين مصر والشام والعراق واليمن، وأخذ السلطان نور الدين يعد للمواجهة الفاصلة لتحرير بيت المقدس، ولكن المنية وافته قبل أن يحقق حلمه وحلم الجماهير العربية في التحرير، في شوال من عام 569 هـ / 1172 م، فتولى ابنه الملك الصالح اسماعيل، الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره، الأمر الذي أثار أطماع الطامعين من آل زنكي، مما استدعى ضرورة وجود فارس يعيد لحمة الوحدة قبل فوات الأوان، فكان هذا الفارس صلاح الدين الأيوبي[34].

واذا عدنا إلى نور الدين محمود زنكي، نجد أنه مكمل لسياسة أبيه عماد الدين، الذي قامت سياسته على التصدي والتحدي فالتحرير، غير الكامل، أما دور صلاح الدين الأيوبي فانه يبرز بشكل واضح في نقل مشروعهما إلى واقع يهدد وجود الصليبيين، الأمر الذي أكسب دوره بعدا تاريخيا وحضاريا وانسانيا، لأنه لبى حاجة الناس في السيطرة على مجرى التغيرات التاريخية وتوجيهها نحو الأهداف القومية والحضارية والانسانية.

واذا درسنا السيرة الشخصية لصلاح الدين، نجد أنها قامت على ثقافة اسلامية من لغة وعلوم شرعية وتاريخ، وعلوم عسكرية أهلته للقيام بدوره القومي والانساني، فقد تلقى صلاح الدين الأيوبي علومه العسكرية على يدي والده وعمه أسد الدين شيركوه، فاتقن فنونها من فروسية ومبارزة وطعان، والاستعداد والتخطيط لكل عمل، ونال علومه الثقافية على العلماء الاجلاء، فأصبح قادرا على وضع خطة لثورة شاملة قادرة على توجيه الأحداث، نحو أهداف استراتيجية للأمة.

بدأ صلاح الدين الأيوبي بتحقيق هدفه اثر توليه الوزارة في 22 جمادى الآخر من عام 564 هـ / 23 آذار 1169[35] حيث قام بثورة سياسية واقتصادية واجتماعية في مصر، فقام بتطهير الجيش من العناصر المتخاذلة والمعوقة لسياسة القوة والمنفعة، فتخلص من الأمراء

(33) ابن شداد : المصدر السابق والصفحة.
باركر : الحروب الصليبية، ص 79، 80.
(34) شحادة الناطور وآخرون : تاريخ المشرق الاسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، ص 132، 133.
(35) ابن الأثير : الكامل، ج 11، 341.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1، ص 168.

الموالين للحكم الفاطمي، ومن المتآمرين مع الصليبيين فأعدم جوهر بن عبد الله لمراسلته الاعداء[36] وتخلص من رجال القصر لتآمرهم عليه، وأفشل حملة صليبية على مصر بالتنسيق مع نور الدين الذي قام بالضغط على الصليبيين فهاجم بعض حصونهم[37]، وسيطر على القطاع العسكري بعد أن قبض على القادة المناوئين له[38] ثم عزل القضاة الفاطميين وعين العالم الشافعي صدر الدين بن عبد الملك قاضيا للقضاة ووزيرا للديار المصرية[39]. وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي (العاضد) وأقامها للخليفة العباسي المستضيء في محرم سنة 567 هـ / أيلول 1171 م بناء على أمر السلطان نور الدين زنكي، الأمر الذي وحّد مصر والشام والعراق مذهبيا وقوميا.

لم يمر تحويل الخلافة، وما تلاه من موت الخليفة الفاطمي مرورا عاديا، ولكن المنتمين للعهد الفاطمي والمتضررين من زواله، قاموا بمؤامرة على صلاح الدين عام 569 هـ / 1174 م، وشارك في المؤامرة ثلاثة عناصر داعي الدعاة (عمارة اليمنى) والملتفون حوله، وبقايا حاشية القصر والسودان، والاسماعيلية والصليبيين، ولما اكتشفت المؤامرة، لقن صلاح الدين المتآمرين درسا قاسيا، فصلب بعضهم وفرض الاقامة الجبرية والرقابة الشديدة على آخرين ...[39].

واستجاب ملك صقلية للخونة، فأرسل اسطولا ضخما إلى الاسكندرية في ذي الحجة 569 هـ / 1173 م كان نصيبه الهزيمة وفقدان عدد كبير من عتاده وعدده[40].

وقامت في هذا العام فتنة باليمن بزعامة عبد النبي بن مهدي فأخمدها وأخرى في العام التالي في جنوب مصر بقيادة أحد الفاطميين (كنز الدولة) فأرسل أخاه الملك العادل لهذا الأمر في صفر عام 570 هـ / 1175 م[41].

---

(36) أبو شامة : الروضتين، ج 1، ص 174.
ابن كثير : عماد الدين اسماعيل (ت 774 هـ / 1372 م).
البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، سنة 1977، ج 12 / 258.

(37) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة، ج 5 / 7.

(38) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 399، ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1 / 243، 244.

(39) ابن الأثير : المصدر السابق والصفحة.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1 / 243، 244. ابن خلدون : تاريخ، ج 5 / 287.

(40) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 401، 402.

(41) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 48. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 17.
ابن تغري بردى : النجوم، ج 11 / 24. ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 160.
أبو شامة : الروضتين، ج 1 / 551. ابن العديم : زبدة حلب، ص 339.

ورافقت اصلاحات صلاح الدين السياسية والعسكرية اصلاحات اجتماعية واقتصادية تمثلت في رفع المظالم وابطال المكوس على البضائع، الأمر الذي أدى إلى رخص المواد الاستهلاكية علما أنها كانت تدر على الدولة خمسة ملايين دينار[42].

وانعكست هذه الاصلاحات على الدولة، فالتفت الجماهير حولها، ورأت فيها خير معبّر عن وجدانها التاريخي والحضاري، ورأت فيها القدرة على تحقيق طموحها وأهدافها وازالة آثار العدوان.

وكادت هذه الانجازات في بلاد الشام ومصر أن تنهار بوفاة السلطان نور الدين محمود زنكي وبخاصة في الشام حيث رأى الأمراء عجز ولي العهد في السيطرة عليهم، والمحافظة على ما تمّ من انجازات، لولا أن قيّض الله للأمة صلاح الدين الذي استشعر بحدسه التاريخي ما يمكن أن يحدث للأمة بعدما وصلت إليه من القوّة والمنعة في ظل طفل مطموع فيه، الأمر الذي دفعه أن يشمّر عن ساعديه للقيام بدوره التاريخي والحضاري.

وتمثل دور صلاح الدين، في وضع أسس استراتيجية للتحرير، قامت على أساسين أحدهما يتعلق بالمسلمين والآخر بالصليبيين.

وبالنسبة لاستراتيجيته الاسلامية فقد أعاد تجديد الولاء من قبل الأفراد، ثم أخذ يوفّر الموارد اللازمة من بشرية واقتصادية، واعداد للقوى المقاتلة وحاجاتهم من الذخائر والأسلحة، والقيادة الكفء ليستطيع البدء بالتحرير[43]، وبعد أن أكمل استعدادته، اعلن الجهاد في سائر الاقاليم، فلبت الأمصار واجتمعت القوات في دمشق مع ابنه الأفضل، بينما كان في حملة لتأديب حاكم الكرك الصليبي (أرناط) الذي اعتدى على قافلة الحجاج، وتأمين وصول الجيش العربي المصري إلى الشام، للقيام بنصيبه في حرب التحرير، وتمت المهمات بنجاح[44].

وفيما يتعلق بأهدافه نحو الفرنج فقد رأى ضرورة ايجاد الانقسام بين صفوفهم فصالح أمير انطاكية (بوهمند) عام 583 هـ / 1187 م[45] وأوجد الخلاف بين جان لوجان (زوجة بلدوين الخامس) وريموند الصنجلي الذي طلب المساعدة من صلاح الدين فأخذ كل منهما يحشد قواته للآخر[46] وكذلك أوجد الخلاف بين أمير الكرك (أرناط) وملك القدس (جان لوجان) الذي فشل في وساطته لاطلاق سراح المسلمين من قبل أمير الكرك[47] هذا فضلا عن محاولة

---

(42) أبو شامة : الروضتين، ج 1، 174.

(43) ابن الأثير : الكامل، ج 11، ص 163. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 175.

(44) ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 1 / 273.

(45) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 75. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 180.
سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2، ص 80.

(46) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 1 / 76.
العماد الأصفهاني : الفتح القسي، ص 68.

(47) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 527. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 116.

إعادة الصداقة مع امبراطور بيزنطة (أندرو نيكوس) في ربيع الأول عام 581 هـ / حزيران 1185 م وخلفه اسحق الثاني.

وجنّد صلاح الدين امكانياته الاعلامية، فقام الشعراء والعلماء من رجال الدين باستنفار الجماهير للجهاد من أجل التحرير[48].

واستكمالا لخطته العسكرية، كان لا بدّ من كشف مخططات الأعداء لاضعاف شوكتهم، فقسّم الجيش إلى كتائب وترتيب كل كتيبة إلى ميمنة وميسرة وجناحين، عيّن مظفر الدين كُولبري في الميسرة بينما كان هو في القلب، وأخذ يتلقى المجاهدين حتى بلغوا عشرة آلاف مقاتل[49]، ثم أخذ يقوم بعمليات استطلاعية بقيادة مظفر الدين في الأرض التي يختارها للقتال، فضلا عن الزمان الذي يتناسب مع ذلك، فاستدرج الصليبيين إلى سهل صفوريا بحطين، بعد أن ضمن توفير المياه بعد الاستيلاء على قلعة طبريا في 21 ربيع الأول عام 583 هـ / 2 تموز 1187 م[50].

وعندما أكمل صلاح الدين إعداد الجموع المزوّدة بالامكانيات المادية والمعنوية التي اقتضت منه اثني عشر عاما (570-582 هـ / 1174-1186 م)، وظل دائم التفكير للاعداد ليوم التحرير.

وعلى الرغم من استكمال صلاح الدين استعداده من النواحي كافة، وحتى يبعد أي إحتمال ليس لصالح الأمة، فقد كان لا بدّ أن يتأكد من قدرات الصليبيين، الأمر الذي دفعه إلى زيادة الاحتكاك بهم، ليكون ذلك تمهيدا للضربة القاضية في حطين، وقد شمل هذا التمهيد القيام بغارات خاطفة أزالت أي رهبة ممكنة في نفوس المجاهدين، وبثّت الخوف والرعب في نفوس الفرنج والصليبيين، وقد شملت هذه الغارات غزّة وعسقلان والرملة والعقبة (ايلياء) التي فتحها لضمان الطريق سالكة بين مصر والشام عام 566 هـ / 1170 م[51].

ولمّا أغار الصليبيون بقيادة بلدوين الرابع على ضواحي دمشق، بعث صلاح الدين ابن أخيه عز الدين الذي ألحق بهم هزيمة نكراء عام (574 هـ / 1178 م). والتقى صلاح مع بلدوين الرابع وباليان دي ايلين في سهل مرجع العيون، فأوقع بهم خسائر فادحة، ووقع الجميع أسرى ما عدا بلدوين ونفر قليل نجوا بأعجوبة[52]، ثم غزا بيروت وعكا وطبريا وبيسان

---

(48) ابن الأثير : المصدر نفسه، ج 11 / 530.
(49) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 86. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 187.
ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج 7 / 174.
(50) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 76/75.
(51) ابن الأثير : الكامل، ج 11، 265. المقريزي : الخطط، ج 1 / 359.
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة، ج 5 / 286.
شحادة الناطور وآخرون : تاريخ المشرق الاسلامي، ص 154، 155.
(52) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 455، 456. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 75-77.

(578 هـ / 1182 م)، وتلا ذلك بالاغارة على بيسان وصفوريا وعين جالوت ونابلس وما حولها[53] ولعله بذلك كان يتعرف على طبيعة الأرض ليختار موقع اللقاء الحتمي.

ولمّا كان الأسطول الاسلامي ضعيفا بالمقارنة مع أساطيل الفرنج، لذا لم يكن الطريق الساحلي الذي يربط مصر بالشام آمنا، الأمر الذي جعل صلاح الدين ايجاد طريق بديل عن طريق العقبة وادي عربة، إلّا أن هذا الطريق يتوسطه حصنا الكرك والشوبك التابعان لى أرناط (رينولد) الحاقد على الاسلام، مما دفعه إلى غزو الأماكن المقدسة في الحجاز عام 578 هـ / 1183 م، فوجيء صلاح الدين بأخبار غزو الحجاز فأمر قائد الأسطول الاسلامي (حسام الدين لؤلؤ) في مصر بتحريك الأسطول والتوجه لافشال الغزو، فقام حسام الدين وبأقصى سرعة بافشال الحملة، فتم له ذلك بعد أن أسر معظمهم[54] لكن أرناط نجا ووصل إلى حصن الكرك.

لم يترك صلاح الدين فعلة أرناط تمر بسلام، فقام بمهاجمة حصن الكرك، وحاصره حصارا شديدا، وهدم جزءا من السور بفضل منجنيقاته التسع.

واذا كانت القوات العربية لم تحقق استعادة حصن الكرك، إلّا أنها أعطت حاكمه الصليبي (أرناط) حقيقة قوّة المسلمين وقدراتهم على انزال الضربات المؤلمة والمتتالية، الأمر الذي دفعه مع ملك القدس لعقد هدنة عام 579 هـ / 1182 م، ولكن هذه الهدنة نقضها أرناط (رينولد) عام 582 هـ / 1186 م، فقد قام بالاعتداء على قافلة للحجاج، واستولى على الأموال والدواب والرجال وأودعهم سجن الكرك وأخذ يقول بتبجح للأسرى (قولوا لمحمدكم أن يخلصكم)[55] وفشلت محاولة ملك القدس مع أرناط في اطلاق سراحهم، الأمر الذي جعل صلاح الدين يسارع في اللقاء الحتمي للغزاة، ولمّا سمع بتبجح أرناط استباح دمه[56].

أحسّ صلاح الدين أنه آن الأوان لمعركة التحرير بعد أن كملت استعداداته، فهو يخشى المفاجآت التي تضطره إلى التأجيل، فكان عليه أن يحدد المكان والزمن ليكونا لصالحه في المعركة.

أصدر صلاح الدين أمره بتجمع المجاهدين، فاجتمع المقاتلون في حوران (عشترا)، وكانوا يزيدون على اثني عشر ألف مجاهد، فقام بترتيبهم وِفْق خطة عسكرية إلى ميمنة

(53) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 56، 61. أبو شامة : الروضتين، ج 2 / 29.
ابن واصل : مفرّج، ج 2 / 115-148-151. ابن العديم : زبدة حلب، ج 3 / 19.
ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 56.

(54) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 35، 37. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 128.

(55) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 528. ابن واصل : مفرّج، ج 2 / 185.
ابن خلدون : تاريخ، ج 5 / 305. أبو شامة : الروضتين، ج 2 / 75.

(56) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 538. أبو شامة : المصدر نفسه والصفحة.

وميسرة وقلب وجناحين[57]، ثم توجّه إلى فلسطين، وبناء على الخطة العسكرية استدرج الصليبيين إلى المكان المناسب : سهل صفوريا الذي تحيط به الجبال ولا تتوفر فيه المياه[58]، بعد أن حرر طبريا يوم الخميس 23 ربيع الآخر عام 583 هـ / 2 تموز 1187 م، وما أن وصلت أخبار طبريا إلى الفرنج، حتى حشدوا جيوشهم من سائر المدن، وقرر مجلسهم الحربي حرب المسلمين، ما عدا ريموند الذي حذرهم[59] ولم يأخذوا برأيه.

اجتمع جنود الفرنج وقد بلغوا خمسين ألف[60] وتمّ توزيع أموال ملك بريطانيا هنري على الجنود لرفع الروح القتالية بينهم، ووزع صلاح الدين الكمائن وأخذت هذه « الكمائن » تباغت العدو وتستدرجهم إلى السهل حيث تقع حطين.

وقع الجيش الصليبي في فخ المجاهدين، وأخذت تصل فرقه في فوضى تامة، فمؤخرته لا تجاري مقدمته وبخاصة عندما حل بهم العطش، وساعد شهر تموز الحار في ذلك، فأخذوا يسرعون إلى طبريا، ودبّ الخلاف بين القادة فالملك جاي يريد أن يعسكر قبل طبريا، بينما خالفه « ريموند » الأمر الذي أشعره بالهزيمة مسبقا[61].

وحلّت ليلة الجمعة 24 ربيع الآخر عام 583 هـ / 1187 م، وتصادم الجيشان بأرض لوبيا في السهل الغربي لطبريا المعروف بحطين من أرض صفوريا، وبناء على الخطة التكتيكية لصلاح الدين أحاط المجاهدون بالفرنج إحاطة الدائرة بقطرها[62] ثم أخذ المجاهدون يضيقون عليهم الحصار، وركّز صلاح الدين على الصليب الأعظم، الذي كانوا يعتقدون أن فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح، واشتد عليهم الطوق، ولم يبق مع الملك « جاي » سوى فئة لا تتجاوز مائة وخمسين فارسا، وأخذ قادة الصليبيين يقعون في الأسر[63]، الملك جاي، ثم أرناط (صاحب الكرك) وبعدهما صاحب جبيل، وهنفري صاحب تبنين وجرار مقدّم الداوية، وبذلك انتهت المعركة، واستقبل صلاح الدين زعماء الصليبيين في خيمته، وبرّ يوعده بالنسبة لارناط قائلا له : (هأنذا أبرّ بوعدي لمحمد) وكذلك بالنسبة للداوية والاسبتارية، (وهما فرقتان شديدة العداء للمسلمين) فمن أسلم من الفرقتين أبقاه، ومن أبى أمر بقتله، وسيق الأسرى إلى دمشق حيث تم بيعهم[64].

(57) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 77 / 79.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2، 191. ابن العديم : زبدة حلب، ج 2 / 95.

(58) ابن شداد : النوادر السلطانية، 78، 79. ابن واصل : مفرّج، ج 2 / 195.
ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 537.

(59) العماد القسي : ص 19. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 186.

(60) ابن واصل : مفرّج، ج 2 / 23. [قطعت نساء الفرنج شعورهن لاثارة المقاتلين ضد المسلمين].

(61) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 548، 549. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 214.

(62) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 72، 76. ابن واصل : مفرّج، ج 2 / 187.
ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج 7 / 174.

(63) عبد العاضدي : صلاح الدين والصليبيون، ص 182.

(64) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 533.

واستكمالا لخطته التكتيكية بدأ بتحرير المدن الساحلية، حتى يقطع أي مساعدة من البحر ويضمن استمرار الاتصال مع مصر، فحرر الناصرة ثم عكا، وحيفا وقيسارية والشقيق ونابلس وسبسطية مجدل بابا وصيدا، وصرفند (قرب صور) وبيروت وجبيل وصور، ثم اتجه نحو عسقلان فأعادها ثم الرملة ويبنا[65]، وبذلك أصبحت مملكة القدس معزولة تماما والطريق ممهدة لها.

اجتمع المجاهدون بقيادة صلاح الدين مقابل أسوار القدس الغربية في 15 رجب 583 هـ / 20 أيلول 1187 م، ثم نقل مجموعة منهم أمام الأسوار الشمالية (باب العمود)، ثم أخذ يعد أدوات الحصار لاقتحام المدينة، واشتدّ القتال، وتحكمت المنجنيقات بأسوار المدينة، وأخذ النقّابون ينقبون الأسوار، رأى الصليبيون حتمية فتح المدينة، وبخاصة فشل إثارة المقاتلين الذي دب فيهم اليأس[66]، فأخذوا يراسلون صلاح الدين بتسليم المدينة وطلب الأمان وإلّا سيحرقون المسجد الأقصى والمدينة بعد أن يقتلوا خمسة آلاف أسير[67]، وافق صلاح الدين على ما طلبه البطريق (هرقل)، لكنه اشترط على الاستسلام واعتبار سكانها أسرى حرب، ومغادرة الغزاة مقابل فداء قدره عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة ومن دفع أطلق سراحه، وسامح المعدمين والفقراء، ومن لم يدفع من الجنود سار مملوكا، وافتدى ملكها نفسه (باليان دي إبلين) نفسه بثلاثين ألف دينار، ودخل المجاهدون المدينة المقدسة يوم الجمعة ليلة الاسراء والمعراج 27 رجب 583 هـ ° 12 تشرين أول عام 1187 م[68].

أمضى صلاح الدين الأيوبي ثمانية وعشرين يوما في اعادة الطابع العربي الاسلامي للمدينة، بإزالة التغيرات التي أحدثها الصليبيون، فكشف عن المحراب، وفرش صحن الجامع بالسجاد النفيس، وأضاءه بالقناديل النفيسة، وأحضر منبر نور الدين زنكي، وعين إماما وخطيبا للمسجد، وأوقف أرضا واقطاعات له، ثم غادر المدينة متوجها نحو عكا وصور حيث حالت قسوة الشتاء من فتحهما[69].

ومع بداية الربيع أخذ يستعيد بقايا الجيوب والقلاع والحصون المتناثرة، اللاذقية، وبكاس، وبرزية، وصفد، وكوكب الهوا وغيرها[70].

---

(65) العماد الاصفهاني : الفتح القسي، ص 74. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 76.
(66) سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2 / 806.
(67) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 81. ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 189.
ابن الأثير : الكامل، ج 2 / 535.
(68) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 84. ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 554، 555.
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة، ج 6 / 38.
(69) ابن الأثير : الكامل، ج 11 / 557.
(70) ابن الأثير : الكامل، ج 12 / 48، 49. أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 151.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 302.

أحدثت انتصارات المسلمين وبخاصة حطين وتحرير القدس ردة فعل عنيفة في أوروبا، فأخذ البابا « كليمنت الثالث » يتوسّل إلى ملوك أوروبا لتناسي الاحقاد وإعادة بيت المقدس، واستجاب له امبراطور المانيا (فرديريك بربروسا) وملك فرنسا (فيليب أوغسطس) وملك بريطانيا (ريتشارد قلب الأسد).

أما امبراطور ألمانيا فقد تعرض في طريقه البري إلى الخطف والبرد الشديد، فضلا عن العداء من قبل امبراطور بيزنطة (اسحق الثاني انجيلوس) ولقي حتفه غرقا[71] في أحد أنهار آسيا الصغرى.

ووصل ملك فرنسا إلى صور بحرا حيث صحبه حاكمها (كونراد) إلى عكا في 12 ربيع الأول عام 587 هـ / 1191 م، ووصل بعد صعوبة بالغة ملك بريطانيا (ريتشارد) إلى قبرص ومنها إلى عكا في 12 ربيع الأول 587 هـ / 1191 م[72].

أعطى وصول ملكي فرنسا وبريطانيا الصليبيين دفعة قويّة، وبخاصة أنهما محملان بالأسلحة والذخائر، الأمر الذي دفع القوات العربية الاسلامية لمهاجمتهم أثناء السير من عكا إلى حيفا فقيساريا : إلّا أن هذه الهجمات لم تكن فاصلة على الرغم من إصابة ريتشارد بجروح ورضوض، ولكنها أكّدت لملك بريطانيا أن القوات العربية على جانب كبير من القوّة والمنعة، والنصر عليها في حكم المستحيل، مما دفعه إلى طلب المفاوضات.

تظاهر صلاح الدين بالقبول حتى تصل قوّات التركمان، ولمّا فشلت المحادثات كان اللقاء بين الطرفين في أرسوق في شعبان 587 هـ / 2 أيلول 1191 م[73]، وكادت أن تحلّ بالصليبيين هزيمة منكرة كحطين، إلّا أنهم تجمعوا ثانية، وتمكنوا من إبعاد المجاهدين وإجبارهم على التراجع[74].

تحطمت آمال ملك فرنسا (فيلب أوغسطس) في تحقيق أهدافه، بل رأى استحالة ذلك، فانسحب عائدا إلى بلاده، وبقي ريتشارد وحده في الميدان، فاتجه إلى يافا، حيث حاول المسير إلى بيت المقدس في ذي القعدة 587 هـ / 1191 م، ولكنه تعرض إلى خسائر فادحة في الأرواح والعتاد من قبل المجاهدين أثناء سيره، وزاد في فشل القوات الصليبية استعادة المسلمين ليافا في 20 رجب 588 هـ / 1192 م، وقيام الخلاف بين ريتشارد وكونراموتتغرت (صاحب صور)، وأخيرا وصول أخبار سيئة من بريطانيا، بجانب تعرضه إلى مرض دائم،

(71) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 157، 161.
أبو شامة : كتاب الروضتين، ج 2 / 183.
(72) ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 350.
(73) ياقوت : معجم البلدان : أرسوف مدينة بين قيسارية ويافا.
(74) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 183.
ابن واصل : مفرّج الكروب، ج 2 / 265.

هذه العوامل وغيرها دفعت ريتشارد إلى الرغبة الشديدة إلى التخلص من المأزق الذي هو فيه والاصرار على الصلح، فكان صلح الرملة[75] في 22 شعبان 589 هـ / 3 أيلول 1192 م.

وبانعقاد الصلح فشلت الحملة الصليبية الثالثة، ويبدو أن صلاح الدين كان ينظر إلى الصلح كهدنة مؤقتة يبعد فيها القوات الأوروبية الضخمة، وفرصته لالتقاط الأنفاس والاستعداد لجولة قادمة، فهي مؤقتة ولمدّة ثلاث سنوات، وليست معاهدة سلام تنتهي فيها حالة الحرب، فقد كان صلاح الدين يؤمن باستمرار الجهاد (المصلحة ألّا نزال على الجهاد حتى نخرجهم أو يأتينا الموت)[76].

لم يمض عام على الهدنة، حتى انتقل صلاح الدين إلى الرفيق الأعلى، وكان ذلك يوم **الاربعاء 27 صفر 589 هـ الموافق 4 آذار 1189 م، وترك لمن بعده تحرير بقية الثغور، فكان هذا دور الممالك البحرية.**

واذا عدنا إلى دور صلاح الدين الحضاري والانساني، نجده يقوم على أسس اجتماعية وسياسية واقتصادية، فقد عبّأ الجموع العربية، وأعدها للمعركة ماديا ومعنويا وفكريا، حتى أصبحت مستعدة للبذل والتضحية.

كما اعتمد على التخطيط الواعي لكل الاحتمالات، هذا إلى جانب الحرب النفسية نحو الأعداء، فكان يُحْكم المحاصرة حتى يدخل اليأس في قلوب الأعداء، ثم يرسل الرسائل بواسطة السهام، يكتب فيها عبارات الترغيب والترهيب، الأمر الذي يوجد الاضطراب النفسي لدى الأعداء، وفي حالة الاستسلام يَمْنح الأمان ويفي به، فضلا عن تقديره للابطال من المجاهدين حتى يستمروا في البذل والتضحية.

---

(75) من شروط الصلح :
1 ـ يسبق الصلح هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.
2 ـ يسلم الفرنج للمسلمين عسقلان وغزة، والداروم.
3 ـ للفرنج البلاد الساحلية بين صور ويافا، وكذلك انطاكية وطرابلس.
4 ـ اللد والرملة هنا صفة.
5 ـ الحرية الدينية في القدس، ومن حق الصليبيين الحج إليها دون أن يدفعوا ضرائب.

(76) الاصفهاني : الفتح القسي، ص 440.